الكتابة على الجدران في الانتفاضة

بول ستاينبرغ

آن ماري اوليفر

الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية - القدس الشريف

الجمعيـة الفلسـطينيـة الاكاديمية للشـؤون الدولية، مؤسسة فلسطينية مستقلة، لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتهدف الى إعداد بحوث وعقد ندوات ومؤتمرات متخصصة في المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني الفلسطيني واطارها القومي العربي وبعدها الانساني والدولي، والاسهام في توظيف هذا الجهد الاكاديمي للتعريف بخصوصية وعناصر المسألة الفلسطينية محليا واقليميا ودوليا.

إن ما ورد في هذه الورقة من آراء وأفكار، تُعبر عن وجهة نظر المحاضرين الشخصية ولا تعكس أو تمثل بالضرورة موقف أو رأي الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية، أو العاملين فيها. وقد قدم المحاضران بول ستاينبرغ وآن ماري اوليفر هذه الورقة كمحاضرة في مقر الجمعية بتاريخ ١٩ تموز ١٩٩٠، ضمن برنامج المحاضرات للعام ١٩٩٠.

جميع الحقوق محفوظة للجمعية

الطبعة الأولى - تموز ١٩٩٠
الطبعة الثانية - أيار ١٩٩٤

PASSIA
Tel: 972-2-626 4426 - Fax: 972-2-628 2819
P.O.Box 19545, Jerusalem

أصبحت قراءة الكتابة على الجدران ضرورة لا غنى للفلسطينيين عنها، فبعد أن سُدّت في وجوههم جميع قنوات الاتصالات بشكل محكم، أخذوا ينقلون أفكارهم ورموزهم عبر الوسيلة العريقة، وإن كانت فظة، ألا وهي الكتابة على الجدران. "ليس أمامنا سبيل آخر"، هكذا يفسر النقّاش صورهم التي تدل احياناً على إبداع جمالي والتي تنقشها على واجهات الحوانيت، وأعمدة الهاتف، وجدران المقابر والبيوت فئات متعددة كثيرة تسعى كل منها إلى إعلاء شأنها وشأن الانتفاضة: كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وحركة المقاومة الاسلامية (حماس) وحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، والشيوعيون. وما إن يأتي اليوم التالي حتى تكون تلك النقوش قد طليت بالدهان عادة أو أعيدت كتابتها إما على أيدي الجنود أو في حالات أقل، على أيدي مجموعات فلسطينية منافسة. ومع أن ظاهرة نقوش الانتفاضة قد أهملت الى حد كبير، إلا أنها تمثل عالماً صغيراً للاثبات والرفض والالهام والخوف والعزم على نيل السلطة، وباختصار فانها تمثل صراعات داخل الكفاح الذي يحمل اسم الانتفاضة.

وعلى النقيض من الكتابة الجدارية في الغرب، وهي كتابة يمكن تصنيفها تحت ارشادات ما أسماه دندس بحق "تلطيخات"، وتعتبر شخصية في طبيعتها وخصوصية في التنفيذ والمعاينة، فان كتابة الانتفاضة على الجدران يقصد منها أن تكون عامة وأن تؤدي مهمة لوحة الاعلانات. والكتابة الجدارية هي بمثابة قانون داخلي للفلسطينيين أنفسهم. وهناك رسائل بالانجليزية أو العبرية لكنها تخرج عن القاعدة.

وعلى الرغم من أو بسبب الخطر على الفنانين، توجد الكتابة الجدارية دائما تقريبا في مواقع مطروقة وبادية للعيان، إذ قلما نجد كتابة جدارية، باستثناء أشد الكتابات فظاظة، في الطرقات الاقل اكتظاظاً بالمارة التي تبدو وكأنها الارضية الاكثر منطقية لكتابات كهذه نظراً لقلة تردد الجنود عليها. أما الاستثناء لهذه القاعدة العامة فهو البيوت المهجورة والخرائب المتداعية التي يستخدمها الشباب كبيوت آمنة؛ ففي أحد هذه البيوت في حيّ الشيخ رضوان بغزة نجد أن داخله قد غطي تماماً بالاشكال التي رسمت بطلاء الرش لتصور: جواسيس برزت انيابهم ورسمت على وجوههم علامة الضرب؛ وشبابا يعتمرون الكوفية؛ وفلسطينيين عمالقة يحطمون نجمة داود بكلاشينكوف.

وقد يكون من المفيد لنا أن نقارن الكتابة الجدارية للانتفاضة بالكتابة الجدارية "للعصابات"، وهي كتابات تظهر على السيارات التي تسير في الطرق تحت الارض وعلى جدران الاحياء الداخلية بالمدن الامريكية؛ إذ أن "أبناء الحي" من أفراد التجمعات و "شباب" الانتفاضة كلاهما أفراد عاجزون نسبيا في مجتمع أوسع. فالطريقة التي يمكن أن يصبح فيها العديد من أفراد فئات الاقلية في أمريكا أفراداً "مستترين"، هي طريقة حسنة التوثيق. وبالمثل فان الشباب الفلسطيني الذي يتولى الكتابة على الجدران للانتفاضة يعاني من خفاء متصل بهذا الامر ... وتعتبر الكتابة الجدارية بالنسبة للسكان في كلا الحالين بمثابة إشهار للتظاهر بالحركة الوجودية بمعنى "نحن موجودون". فالعبارات التي لا يكاد يخلو منها مكان والتي يكتبها الشباب مثل عبارة "**فتح مرت من هنا**" و"**حماس في كل مكان**" إنما هي رسائل يتم نقشها على مرتفعات خطرة. ومع أن عبارات ترويجية كهذه تعبر عن الاحساس بالقوة التي تتولد لدى الشباب نتيجة لنجاح الانتفاضة، إلا أن تأثيرها يظل متعلقاً في علم الغيبيات.

إن أكثر ما يميز الكتابة الجدارية "لأبناء الحي" عن الكتابة الجدارية "لشباب" الانتفاضة هو سرعة الزوال المفرطة لكتابات الشباب بحيث تصبح في عداد التاريخ قبل أن يحين أجلها، فصورة لكتابة جدارية للانتفاضة هي، حرفيا، نسخة بدون أصل. وتضفي هالة سرعة الزوال هذه بعداً جماليا على الكتابة - وتزداد شدة هذا الاتجاه ليس فقط نتيجة للاشكال الجميلة للغة العربية، بل نتيجة كذلك لعملية التصوير في حد ذاتها؛ ثم أن كثيراً من العبارات والرموز المستعملة في الكتابة الجدارية للانتفاضة ذات جذور راسخة في الفن الشعبي الفلسطيني والثقافة السياسية، ويعتبر مؤلفوها وسائط إجماع اجتماعي محض وبذا فهم مجهولون ومستترون، ولوحات الوانهم منبسطة.

"هل هو فن؟" هكذا جاء في كتابة جدارية خُطّت على جدار مثقل بالعبارات في القدس الغربية ... للاجابة على ذلك السؤال، يمكن مقارنة الكتابة الجدارية للانتفاضة بفن الانتفاضة. وبالاضافة الى معيار الديمومة يختلف النوعان من وجوه أخرى كذلك؛ ففن الانتفاضة يمكن أن يوصف بأنه خليط من البدائية الجديدة والسريالية الثورية أو "السريالية الرمزية"، كما يقول الفنان محمد ابو ستّة من غزه، ويستمد فن الانتفاضة صورة من إطار أوسع من الاطار الذي يستمد منه مبدعو

الكتابات الجدارية للانتفاضة: كالسلاسل والشموس الصفراء؛ ونساء مبرقعات يمتطين خيولا ذات أعراف وذيول وأقدام خيالية؛ والرصاص وعلب الغاز المسيّل للدموع التي تحمل عبارة "**صنع في الولايات المتحدة**"؛ أو راحة يد ممدودة فيها حدقة عين نافذة تحملق بعيداً نحو الخارج ... وهناك مناظر سعيدة: "**زفاف فلسطيني**"؛ ومناظر غير سعيدة: "**كالكارثة الفلسطينية**". وبالمقابل فان الكتابة الجدارية للانتفاضة سهلة نسبيا تعتمد في معظم الحالات على اللغة وتختار رموزا قليلة لتعبر بها عن الالحاح السياسي والاجتماعي.

وعلى الرغم من أن معظم الكتابة الجدارية الفلسطينية تتألف من عبارات وشعارات، إلا أن هناك عدداً من الصور التي يتكرر ظهورها ويمكن اعتبارها رموزا رئيسة، وشارات بديلة، للمقاومة الفلسطينية مثل: قبضة اليد المضمومة، وشارة (V)، والبندقية، والعلم الفلسطيني وخارطة كل فلسطين. إن قبضة اليد وشارة (V) يعرفان دولياً بأنهما رمزان للتحدي الثوري، لكنهما اكتسبا خلال الانتفاضة قصداً فلسطينيا محدداً؛ فالقبضة يستخدمها "الشباب" غالباً لتدل على الجيوش الشعبية والوحدات العسكرية السرية التي يشار اليها "بالايدي الضاربة" أو "القبضات الضاربة" للانتفاضة؛ وترمز القبضة الى العمل الثابت العزم والقوى أو حتى العنيف، وغالباً ما يتم تصوير القبضة ممسكة ببندقية او علم أو سكين.

أما شارة (V) للفلسطينيين فهي قريبة الشبه من حيث الروح بشارة النصر التي ابتكرها تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية وفيها مدلولات مماثلة على الصمود والعزم في وجه الشدائد؛ وتعتبر شارة (V) للنصر، بالنسبة للفلسطينيين الذين حرموا كل أشكال التعبير عن القومية والهوية، تعتبر شارة تُحوّل أجسادهم الى اعلام ورايات.

وأما العلم أو الراية فهو رمز قوي في نظر الفلسطينيين والاسرائيليين على السواء. والواقع أنه الرمز الوحيد الذي حظر الحكم العسكري استعماله وبشكل قانوني. ويبذل الشباب جهوداً تفوق حد المعقول لتعليق الاعلام الفلسطينية على خطوط الكهرباء ذات الضغط العالي وعلى قمم المآذن وقباب الكنائس؛ وتتزين القرى التي لا يرتادها الجيش كثيراً، بمئات الاعلام، المصنوعة من الطلاء والقماش والتي ترتسم أو تتدلى من كل بناء منظور. وتستخدم جميع الفصائل الفلسطينية، العلمانية منها والدينية، تستخدم العلم أو ألوانه بشكل بارز وفي معظم كتاباتها

الجدارية. ويرمز العلم، بالنسبة للفلسطينيين، الى السيادة التي تنقصهم والتي يتوقون اليها. إن ما يشترك الفلسطينيون في التعويل عليه هو أنه في ظل غياب رموز رسمية للهوية الوطنية كجواز سفر، وبطاقة هوية، ونشيد وطني والراية الوطنية، فانهم سيظلون شعبا لا كيان له ... ويتحدث محمود درويش، واضع مسودة اعلان الاستقلال الفلسطيني، في قصيدته "جواز سفر" عن إجباره على "عرض الجرح" عند سفره كانسان بدون دولة. ويثق العديد من الفلسطينيين بأنه من خلال التعبير بواسطة قصاصات الورق والقماش هذه سيتعرفوا على آفاق مرسى الامان الذي يحميهم.

ويعتبر العلم الفلسطيني صورة تتجاوز الانشقاق بين الاطراف الدينية والقومية، مثلما تتجاوزها البندقية، الرمز البارز للمقاومة الفلسطينية. فالبندقية هي الاداة التي تحقق السيادة التي يجسدها العلم كما أنها تمحو عار الهزيمة. والواقع أن مركزية البندقية يؤكدها مجرد عدد المرات التي تظهر فيها البندقية في الكتابات الجدارية مثل شعار: "**ليش الخوف، ليش الخوف؟ الحجر صار كلاشنكوف**". او كرسم كما في أحد دروع فتح.

وتبلغ أهمية البندقية كرمز جعلت ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير والمثل الأعلى للانتفاضة الفلسطينية، جعلته أحد زعماء العالم القلائل الذين أصروا على مخاطبة الجمعية العمومية للامم المتحدة، وهم يتمنطقون مسدساتهم. وتجدر الاشارة الى أن ياسر عرفات نفسه يحتل مكانة بارزة بين مجموعة صور العظماء الفلسطينيين؛ فيظهر اسمه في العديد من الرسومات، إما كجزء من تحية أو عهد بالوفاء أو كتميمة تُخطّ على الباب أو الجدار، وهو موجود في كل مكان يحلق عالياً فوق الشارع بعيداً عن متناول أيدي الجنود؛ ويُصوّر وهو يداعب الاطفال، او يمسك بباقة من الورد او يعانق الشهيد ابو جهاد.

وهناك تغيير نموذجي على شعار البندقية يتمثل بكتابة اسم الفئة السياسية على هيئة بندقية. ويخلق هذا الاسلوب، الذي تمتد جذوره الى فن الخط العربي، معادلة داخلية بين الموضوع والكلمة، مشيراً إلى الرغبة في تقويض الامنية والعُرف المتبع. وتستخدم حماس هذا الاسلوب فترسم اسمها على هيئة قبة الصخرة(١) وغالبا ما يقترن ذلك بقبضة فيها السبابة تشير الى السماء ... أما خريطة كل فلسطين، أحد الرموز الرئيسة، فغالبا ما تُصوّر بهذا الاسلوب الذي يمزج الخارطة واسم المنظمة الفلسطينية في صورة واحدة.

إن البعث الدراماتيكي للدولة اليهودية بعد الفي عام من النفي كان تتويجاً لحنين العديد من اليهود طوال قرون. ويطلق الفلسطينيون على هذا البعث اسم "النكبة". فقد هاجر مئات آلاف العرب أو طردوا أو فقدوا أرضهم إبان الحروب التي تلت قيام دولة اسرائيل، وكانت خسارة الارض عام ١٩٤٨ مأساة بيّنة للفلسطينيين الذين ارتبط احساسهم بالهوية وبشكل لا رجعة فيه، ارتبط بالارض وبأمل أن تكون لهم مرة أخرى. وهكذا فليس من المستغرب أن تكون رموز الارض بارزة في الكتابة الجدارية الفلسطينية. ان حركة فتح، مثلا، وهي كبرى فصائل منظمة التحرير، تستعمل الخارطة استعمالاً واسعاً وتدمجها غالبا مع اسمها. وتدمج الجبهة الشعبية كذلك الخارطة في عروضها بعد تحويلها الى علم او سلاح او خلفية لشعاراتها. وتجمع الجبهة الشعبية أحيانا الرموز الرئيسة الثلاثة -العلم والبندقية والخارطة- في شكل وهمي مع رسم الخارطة غالباً على النمط المنقط الواضح للكوفية.

وعلى الرغم من أهمية هذه الرموز، فان الاغلبية العظمى من الكتابات الجدارية للانتفاضة تتألف من شعارات ورسائل مكتوبة، وربما أمكن فهمها على أنها بيانات للتصور الاسلامي لما هو مكتوب ... وربما كان هذا نابعاً من الاعتقاد الجاهلي بأن الكلمة المكتوبة في حد ذاتها مشبعة بسحر أو قوة ولذا فان المكتوب ما زال يحظى باحترام كبير حتى الآن. فكلمة "**الله**" في كل مكان، مصورة على جانب حافلة او قابعة في ركن مظلم .. وبينما يشيع استخدام هذه العادة في الدول الاسلامية التي تعتبر كلمة "**الله**" فيها تميمة تجلب البركة السماوية، فقد أصبحت أثناء الانتفاضة عملاً سياسيا كذلك. فكتابة كلمة "**الله**" على الحائط هي بمثابة إثبات للهوية وتحديد اقليمي.

ويمكن أيضا العثور على صفات تمائمتة مشابهة في إثباتات مثل: "**حماس لا تهاب الرصاص**" أو "**نحن أقوى من المخابرات**" أو مجرد عبارة "**فلسطين حرّة**" وكأن مجرد كتابة هذه الرسائل يمكن أن يحققها.

وتشمل الرسائل تحذيرات للمتعاونين وخارقي قيود الاضراب، وتشمل مقتطفات من القرآن، وايحاءات لمواصلة "**الانتفاضة المجيدة**"، ومعادلة نجمة داود بالصليب المعقوف، وتأكيدات لهوية المجموعة والتهجم على المعارضة. ويمكن تصنيف الكثير من الكتابة الجدارية كمصادر الهام كالمناشادات والدعوات

الى الوحدة ... وقد جاء في أحد الكتابات: "**في شهر الزيتون ألف تحية إلى اسرانا في السجون - كتائب أبو جهاد**"، اي أن هذه الكتابة تحمل توقيع كتائب ابو جهاد من فتح، وهو من أشهر وأبرز شهداء الانتفاضة الفلسطينية.

إن خليل الوزير، المشهور باسم أبو جهاد، كان قد اغتيل عام ١٩٨٨ على أيدي الموساد الاسرائيلي كما يقال. وعبارة "تحية لشيخ المجاهدين أحمد ياسين رمز الانتفاضة الأكبر" وقد كتبتها حركة حماس و "الوحدة الوطنية ستبقى قلعة في وجه الاحتلال الفاشي" - وهذه دعوة نموذجية للوحدة. ثم هناك عبارة "عمالنا بالضفة مطالبين بالتضامن مع عمال القطاع" وهي رسالة تحمل توقيع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

ورغم العديد من النداءات التي كتبت على الجدران من أجل الوحدة إلاّ أن الاتجاه نحو الانقسام والانشقاق ما زال قائماً، وهو اتجاه تعكسه أيضا الكتابات الجدارية. ويمكن أن يكون لون طلاء الرش واسطة لاظهار الولاء لفئة معينة، فشعارات حماس، وهي الجناح السري للاخوان المسلمين، تطلى غالبا باللون التقليدي المقدس للاسلام وهو اللون الاخضر؛ وغالباً ما تستخدم فتح اللون الاسود؛ أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والحزب الشيوعي فتستعملان اللون الاحمر.

وتشتد المنافسة بوجه خاص بين الجماعات ذات التوجهات الدينية مثل "حماس" والجماعات القومية مثل فصائل منظمة التحرير الفلسطينية ... فقبل اندلاع الانتفاضة، كانت المنافسة بين الاخوان المسلمين وبين منظمة التحرير تؤدي غالبا الى صدامات عنيفة أو "حجارة وهراوات وضرب" كما قال أحد الفلسطينيين. غير أن كل الجماعات حاولت، منذ اندلاع الانتفاضة، الامتناع عن استعمال العصي والحجارة ضد بعضها البعض وذلك من أجل الانتفاضة. ولهذا فان الصراع بين الاخوان ومنظمة التحرير انحصر الآن الى حد كبير في حرب الشعارات والكتابات على الجدران. وقد جاء في عبارة لمنظمة التحرير كتبت على جدار أحد مستشفيات غزة:

"ستبقى القيادة الموحدة
اليد الضاربة
لمنظمة التحرير الفلسطينية"

وفي مواجهة هذه العبارة كتبت رسالة حماس وفيها:

"اسلامية، اسلامية، هذي حماس الأبية"
"لا شرقية ولا غربية،
لا شيوعية ولا درزية
بدنا دولة اسلامية".

أما شعار "القومي" النموذجي فقد ينص على "م. ت. ف. هي الافضل" أو "عاش رئيس الدولة، أبو عمار". أو مجرد كلمة "فيتنام" وهي كلمة تستخدم غالباً لتلخيص ما يسميه كثيرون "الوضع". وفي صور جدارية رسمت على جدار بالقدس الشرقية، يظهر زمّار فلسطيني، مع أمريكي جنوبي، وافريقي وأمريكي يرتدي الجينز وقبعة البيسبول وفيتنامي ينتعل الصندل وقبعة حقول الارز وكلهم يرقصون في الكون على أنغام الزمّار الفلسطيني.

وهناك مَيْلٌ لدى العديد من الفلسطينيين لحمل وجهة نظر عالمية تصور التاريخ على انه معركة، وتعتبر "فيتنام" ايجازاً واضحاً في هذه المنافسة التي تستجمع فيها قوة أعظم عدوانية وشريرة كل قواها لقهر شعب صغير لكنه نبيل ... وتواصل كتابة جدارية ظهرت في غزة هذا الموضوع فتقول: "اسرائيل ليست أقوى من أمريكا، والفلسطينيون ليسوا أضعف من الفيتناميين". ولا تقتصر شعارات كهذه على الجماعات القوميه، فالكفاح الحقيقي في المنطقة، كما يقول الاخوان المسلمون، ليس بين الاسرائيليين والفلسطينيين، بل أنه بين الاسلام والصهيونية؛ فالصهيونية، بموجب هذا الرأي، هي مجرد الاسم العصري الذي سُميت به قوى الشر التي عارضت إرادة الله منذ بدء الخليقة.

وتكتسب شعارات حماس، اذا قورنت بشعارات الجماعات القومية، رنيناً قويا نتيجة لاستعمالها لغة الاسلام ... فعقيدة الاسلام -**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**- تكتب على الجدران على خلفية اسلامية خضراء او الموازنة بين "حماس، الاسلام". وغالباً ما تستخدم حماس رموزاً قرآنية وقبة الصخرة، مقترنة أحيانا بالأعلام الفلسطينية أو القبضات التي تشهر السكين ... وتستغل حركة حماس أيضاً فكرة الخلاص الشخصي كما جاء في عبارة "من أراد الفلوس فليصبح جاسوس، ومن أراد الخلاص فليتبع حماس - العنكبوت الاسود". وكتبت بخط ديواني، لا يستخدم عادة الا في الشعر والرسائل الادبية. وفي غزة، حيث يعمل اتباع حماس

حراساً على الاخلاق الشخصية، تعتبر شارة الطريق ذي الاتجاه الواحد - القبضة ذات الاصبع الذي يشير الى السماء تعتبر بياناً اقليميا وتحذيراً لكل من يضل عن جادة الاسلام.

وقد حاول القوميون - كما حاول المتدينون الى درجة أقل - صياغة جبهة مشتركة على الجدران، كما يستدل من شعارات مثل "نعم للتنسيق بين العناصر الاسلامية والوطنية"، وهي رسالة الصقتها فتح في البلدة القديمة داخل أسوار القدس و "الرصاص لا يفرق بين مسلم ومسيحي" وهي رسالة وضعتها الجبهة الشعبية في بيت لحم. وفي بيت حنينا رُسم شعار "أبو عمار قائدنا وفلسطين ديارنا والقدس عاصمتنا" على هيئة سفينة فيها صاريان أحدهما على شكل هلال اسلامي والآخر على شكل صليب مسيحي.

ويلتقي الوطنيون والمتدينون معاً في دعوتهم للكفاح المسلح ... كما عبر عن ذلك أحد سكان غزة وبصراحة حين قال "انني اؤيد كل بندقية ومصوبة نحو الصهاينة." ويتم التعبير عن هذه الدعوة غالبا بالكتابة الجدارية المتشددة التي تدعو الى تصعيد اعمال العنف وتصور غالبا الدبابات، والكلاشنكوف، وقنابل مولوتوف، والخناجر، ففي جامعة بيرزيت صورت دبابة كتب عليها م. ت. ف. وهي تدوس نجمة داود. "الكيان الاغتصابي الفاشي لن يرحل الا بالعنف"، شعار رفعته الجبهة الشعبية العلمانية التي رفعت ايضا شعار "ان قوة المنطق لا يمكن ان تكون بديلا لمنطق القوة" وشعار "لقد مهدت البندقية للحجر كما مهد الحجر للبندقية" - الجبهة الشعبية ... وتشبه رسائل المجموعات الاسلامية هذه الرسائل حين تقول "اليوم نرمي حجرا ... وغداً؟" و "تدمير اسرائيل حتمية قرآنية" وهي عبارة كتبت في احد مستشفيات غزة.

وتكتسب الجماعات الدينية مزيدا من القوة باستعمالها عبارة "الجهاد" بدلا من عبارة "الكفاح المسلح" التي يفضلها الوطنيون؛ فهناك شعار كتبته سرايا الجهاد/الاتحاد الاسلامي جاء فيه "اللغة الوحيدة التي يتكلم بها ابن صهيون هي العنف، فلنتعامل معه بلغة الجهاد الاسلامي." كما ان عبارة "الاسلام هو الحل والجهاد هو الطريق"، رسالة سُجلت في الاراضي (المحتلة) واسرائيل وتشكل جزءا من شعار حماس: "الله مبتغاها والنبي مثلها الاعلى والقرآن دستورها والجهاد طريقها والموت في سبيل الله أمينها"(٢)

وبالمقارنة مع الكمية الكبيرة من الكتابات الجدارية التي يقوم بها الفلسطينيون، تعتبر الرسائل التي يكتبها اليهود الاسرائيليون نادرة؛ لان اليهود، على النقيض من معاصريهم الفلسطينيين، يملكون وسائل عديدة للتعبير عن جميع الرسائل ما عدا الرسائل شديدة التطرف، ولهذا فان الكتابة الجدارية اليهودية هي دائما من انتاج قطاع هامشي من المجتمع الاسرائيلي، ويتمثل هذا القطاع اما في اقصى اليمين او اقصى اليسار - او من جنود يقومون باعمال الدورية في شوارع القدس الشرقية والمناطق (المحتلة). وقد وجدت العواطف التي تعبر عنها هذه الكتابة الجدارية في اجزاء من المجتمع الاسرائيلي منذ فترة طويلة. لكن مع تصعيد الانتفاضة اصبح التعبير عنها على الجدران اكثر شيوعا.

وهناك رسم شائع يصور رأسا -او شخصا كاملا احيانا- وعصا مُشرعة فوقه مع عبارة "من سيجهر؟" كما في عبارة "من سيجهر بالقول ضد العنف للفلسطينيين؟" وتنطوي هذه العبارة على مزيد من السخرية عندما نعلم انها مقتبسة من اغنية "حانوكا" التي مطلعها: "من سيروي امجاد ابطال اسرائيل؟". وفي ركن شارعي بن يهودا والملك جورج، تم تحوير هذه الكتابة بشطب كلمات "من سيجهر؟" واضافة عبارة يو. إس. إي. USA (الولايات المتحدة) الى جانب العصا، وكلمة "اسرائيل" الى جانب الشخص المضروب. وفي شارع ديزنجوف بتل ابيب، كتبت العبارة التي يستخدمها اليسار وهي "كفى للاحتلال"، وجرى تعزيز هذا الشعار فيما بعد باضافة عبارة "ليس من الخير ان تموت دعما للتدمير - تزرع الدم لا البذور" وفي ذلك تحريف للكلمات الاخيرة التي تفوه بها ترمبلدور "لا تبالي، فان من الخير ان تموت في سبيل بلدك".

وفي أقصى الطرف المقابل لذلك نجد شعارات اليمين الاسرائيلي الذي يلجأ الى علبة طلاء الرش عادة اكثر مما يلجأ اليها اليسار الاسرائيلي لينقل رسائل مثل "الموت لفيصل الحسيني"، او "تى إن تى (ارهاب ضد ارهاب) قد عادت. سيخوض اليهود حربا ضد الفلسطينيين. الموت للارهابيين الفلسطينيين!"، وهي رسالة تم تصحيحها فيما بعد بالادعاء بأن كاتبها "يهذي".

تنتشر على طول الطرق الرئيسية في الضفة الغربية مواقف باصات "ايجد" التي توفر الارضية الملائمة للمستوطنين الذين يشاركون في لعبة الكتابات الجدارية. ففي موقف للباصات بالقرب من رام الله، نجد الشعار "أشف (منظمة التحرير) لن

تمر"، وقد تم تحريف حرف "أ" من كلمة "أشف" ليبدو على شكل صليب معقوف. ويقوم بكتابة العديد من هذه الشعارات اتباع الحاخام مئير كهانا، مؤسس حزب كاخ المتشدد، الذي حظر عليه خوض انتخابات الكنيست الاسرائيلي عام ١٩٨٨ بسبب برنامجه العنصري. ويعتبر رمز كاخ -قبضة يد مضمومة داخل نجمة داود- وعبارة "الموت للعرب"، نموذجا للكتابة الجدارية لهذه الحركة. ويأتي المستوطنون في الليل غالبا الى المدن العربية ليضعوا فيها علامات اقليمية على شكل اسماء المستوطنات القريبة من تلك المدن او لكتابة اللازمة "شعب اسرائيل حيّ"، على جدران البيوت.

وتوجد الصلبان المعقوفة كذلك مرسومة على الجدران في الاراضي المحتلة. فهي تزين الجدران، وحاويات القمامة، والمراحيض وغالبا ما تقترن باشارة يساوي (=) مع كلمة "اسرائيل". وفي غزة رسم احد الشباب صليبا معقوفا على ذراعه. . . . وبالاستفادة من الدعاية النازية، يكون الشباب قد اختاروا اقوى الرموز المتوفرة واشدها ايلاما.

وتتجلى الكراهية المتصاعدة ايضا في شعارات رسمت على كل حاوية قمامة في الاراضي المحتلة ... وغالبا ما تكون هذه الاهانات المصورة على حاويات القمامة اساسية وتنص على "شامير رئيس وزراء اسرائيل او "بيت شامير" او "شالوم" سلام، او مجرد كلمة "اسرائيل". وهناك ممارسة تتصل بهذا الموضوع وهي كتابة كلمة "اسرائيل" او رسم نجمة داود على الطرق لتدوسها الاقدام والسيارات العابرة.

وهناك وسيلة اخرى شاع استعمالها للقدح والذم وهي تصوير المعارضة على هيئة حيوانات. . . . فيتم عادة تصوير شامير على هيئة "حمار" وذلك في جميع المناطق من القدس الشرقية حتى قطاع غزة. اما رابين وزير الدفاع السابق، فقد صور بالقرب من الباب الجديد في القدس، على هيئة "قرد" الى جانب عبارة "سيُقتل كل شيوعي". ويصور الجنرال السابق ارئيل شارون على هيئة "فيل". ومن اكثر الشعارات اثارة، ذلك الشعار الذي امتلأت به جدران قرية "جفنا" وجاء فيه "ليكن يوم الارض حافزا للكفاح بالحجارة والمولوتوف، نتصدى لقطعان المستوطنين - ق. و. م." وقد اختار كاتب الشعار استعمال كلمة "قطعان" عند الاشارة الى المستوطنين لأن كلمة "قطعان" لا تستعمل الا للبهائم.

وتشكل التحذيرات والتهديدات نوعا اخر من الكتابة الجدارية الفلسطينية. فقد وُجد هذا التحذير الذي وقعته كتائب ابو جهاد من حركة فتح، على جدران المقبرة المسيحية "سننظف ارضنا من دنس العملاء. الويل، الويل للعملاء". ويشيع رسم هذا الشعار على واجهات الحوانيت في اسواق القدس. وهناك تحوير آخر لهذا الموضوع ذاته وهو "لكل بيت باب ولكل عميل حساب"، وقد كتبت هذه العبارة على باب فندق في القدس الشرقية. وفي اغلب الحالات، تتم مخاطبة "العملاء" والمتهمين بالسلوك الشائن بذكر اسمائهم، كما جاء في العبارة التالية التي كتبت على احد الجدران في غزة: "الى احمد شكري: نقول عمر الظالم لن يطول".

يرى الفلسطينيون ان "العملاء" هم ألد اعدائهم. وكانت المخابرات الاسرائيلية قد نجحت، على مر السنين، باقناع عدد من العرب - يقول البعض أن عددهم يبلغ المئات - من خلال الوعود والتهديدات أو كلا الامرين بأن يصبحوا مخبرين. ويصر الفلسطينيون على القول بأن هؤلاء العملاء، وهم منبوذون في المجتمع، قد الحقوا ضرراً فادحاً. وقد أصبحت عبارة "عميل" الآن مظلة ينضوى تحتها كل مرتد عن العقيدة، وتجار المخدرات والهراطقة والخارجين على المجتمع من جميع الفئات. ويتم قتل هؤلاء العملاء بمعدل واحد يوماً بعد يوم، في الضفة الغربية وقطاع غزة. وحتى يومنا هذا، وقع أكثر من ألف هجوم باشكال مختلفة على الخونة الحقيقيين والوهميين.

وقد حملت جدران المستشفى الاهلي بغزة الدليل في الآونة الأخيرة على الجدل حول مصير متهم بالتعاون وهو جهاد القواسمي. فقد جاء في الكتابة الجدارية الأولى: "فتح تدين الاعتداء على الأخ جهاد القواسمي". ويبدو أن فتح قد غيرت موقفها أو تلقت معلومات جديدة لأن الرسالة الاصلية شطبت واستبدلت بعبارة: "فتح ليس لها علاقة مع العميل جهاد القواسمي". واذا استطاع الشخص المتهم بالعمالة أن يحول النزاع من نزاع سياسي الى صراع عائلي، فانه قد ينجح في منع العقوبة التي تفرض على الخونة عادة. ويبدو أن القواسمي قد حاول أن يفعل ذلك، لأن كتابة جدارية ظهرت بعد ذلك وجاء فيها: "الى العميل جهاد القواسمي، اذا حوّلت عملية ردعك الى مشكلة عائلية، قسماً لننفذن بك عقوبة الاعدام". واذاعت القيادة الموحدة هذه الرسالة الى كل من تسول له نفسه التحالف مع المتهم "ق. و. م."، ستضع كل من يقف بجانب القذر جهاد القواسمي تحت منظار الأمن الثوري".

ويشكل احياء الذكرى حافزاً رئيسيا للكتابة على الجدران. فتشيع كتابة التذكارات التي تمجد شهداء الانتفاضة حيث تطل وجوههم من على ملصقات على الجدران .. ويتمتع **الشهيد** بمكانة عالية في المجتمع الفلسطيني نظراً لأنه ضحى بحياته "**جهادا في سبيل الله والوطن القومي**".

"هنيئاً لك الجنة يا أمجد - السواعد الرامية - حماس"(٣)، شعار كتب في البيره ويعبر عن فكرة الخلود التي يحظى بها الشهيد من خلال التضحية .." في جنان الخلد يا ناصر، إن شاء الله". ومما يثير الاهتمام مخاطبة الشهيد وكأنه ما زال حيّا، كما يتضح من العبارة التالية: "تحية للشهيد محمد الخواجا أول شهيد في أقبية التحقيق الصهيونية،جبهة شعبية". وفي مكان قريب من ذلك، ظهرت كتابة جدارية أخرى خطّتها الجبهة الشعبية أيضا تحث الناس على السير في خطى الشهيد: "فخرنا أن نموت ونصون شرفنا كما فعل الرفيق محمد الخواجا، جبهة شعبية". وعلى غرار الكثير من العواطف التي تعبر عنها الكتابة على الجدران عند الفلسطينيين، فان الارتقاء الى مرتبة الشهيد امر تعود جذوره الى الثقافة العربية الاسلامية العريقة. فمنذ عهد النبي محمد الذي كان يتمنى الشهادة، فان كل من استشهد "في سبيل الله" ضُمنَ له مكان في الجنة وتخلد اسمه على الارض. وتجد هذه العاطفة تعبيراً لها حتى في شعارات الجماعات العلمانية مثل الجبهة الشعبية التي اوردت في رسالتها هذه في رام الله: "تحية الى أحمد الكيلاني، شهيد العمال، على دربه سائرون".(٤)

"**على دربه سائرون**": انها الحوافز التي تحدو بالاطفال للسعي الى حتفهم - وهي وفيات ستكتب في سفر الشهداء لتكون عبرة للاحياء، وحصيلة ثانوية في انكشاف دراما يرى الفلسطينيون انها ذات نطاق كوني.

الهوامش

(١) قبة الصخرة في الكتابة الجدارية الفلسطينية تمثل تثبيتاً هاماً للهوية الاسلامية، وهي بدورها تؤدي وظيفة التصريح عن الملكية المسلمة لأكثر المواقع إثارة للجدل في الصراع العربي - الاسرائيلي.
كذلك فان قبة الصخرة تشكل جزءا هاما من الموقع الذي يعرف بالنسبة للمسلمين باسم منطقة الحرم الشريف، وهو المكان الذي صعد منه الرسول محمد الى السماء في معجزة الاسراء والمعراج. أما بالنسبة لليهود فان تلك البقعة تمثل مكان جبل الهيكل وهو معبد سليمان.

ومنذ عام ١٩٦٧ ترك الاسرائيليون حرية التصرف في الموقع في أيدي هيئة الاوقاف الاسلامية. ولا يزال مسجد الاقصى في الكتابة الجدارية الفلسطينية معرضاً للخطر. وهذا الامر على وجه التحديد حقيقياً، وليس مقتصراً بالذات على الكتابة الجدارية الخاصة بحركة حماس. ومن احدى الكتابات الجدارية الشائعة جداً في قطاع غزة لحركة حماس هي: "اصمد، اصمد، يا أقصى ... فان البنية الاسلامية قد اكتملت تقريبا ...".

وعادة ما تنهي حركة حماس شعاراتها بالتوقيع باسم "حراس المسجد الاقصى .." إلا أن جماعات اليهود الراديكالية والذين تسكن غالبيتهم في المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة ويعتبرون بأن سيادتهم على تلك المنطقة تولي اهتماما بارزاً بالنسبة لهم ... ومن حيث وجهة نظرهم، فان البنية الاسلامية المتواجدة الآن على "الجبل" يشكلون عائقاً لمجيء المسيح المنتظر .. وفي منتصف الثمانينات حاول المتطرفون اليهود من الجماعة اليهودية السرية تفجير قبة الصخرة.

(٢) ورد هذا الشعار في ميثاق الحركة التي سجلت باسم حركة المقاومة الاسلامية عند بدء الانتفاضة. وفي الميثاق يستعمل الاخوان فصاحة لغة القرآن والاحاديث ... وتزداد هذه قوة باستخدام مزيج من التنديد اللاذع بالعربية، والرطانة الثورية، والعبارات الاوروبية المعادية للسامية التي اضفي على الكثير منها مسحة اسلامية. ويمكن أن يُرى هذا الخلط في الاساليب وبدرجة أقل في الكتابات الجدارية للحركة.

(٣) ينعم الشهيد بوفاته، بالخلود، والاهم من ذلك أنه يضرب المثل لغيره ليقتدوا به.

(٤) مع أن عبارة شهيد هي في الاصل عبارة دينية، الاّ أنها دخلت المصطلحات القومية الفلسطينية، ويميز أعضاء حماس بين شهيد في سبيل الله، وشهيد الارض. وتصر حماس على أن المسلم يمكن أن ينال الشهادتين (الشهادة في سبيل الله، وشهيد الارض) أما المسيحي فله شهادة الارض وحدها.

Since the advent of the Intifada, the V-for-victory sign has served the function of turning the body into a banner. It is an ubiquitous symbol found throughout Israel and the Territories. Here, it has been painted on the walls of a monastery. *Fatah* has been inscribed on the palm. Christian Quarter, Old City, Jerusalem.

Graffiti is often erased or edited by rival Palestinian groups or by passing patrols. This graffito, originally a Palestinian flag, was covered up by soldiers and replaced by a Star of David and the slogan, "Arabs out." It was subsequently re-emended by a Palestinian who scrawled a large "No" in the center of the Star. Old City, Jerusalem.

The Popular Front for the Liberation of Palestine has combined the three chief symbols of the Palestinian Uprising--the flag, the gun, and the map--into a single chimerical shape. Gaza City, The Gaza Strip.

A detail of a piece of Hamas graffiti depicts a fist emerging from The Dome of the Rock inside of a map Palestine. Hamas often employs symbols in its graffiti which possess both Islamic and Palestin resonance. Beit Hanina, Jerusalem.

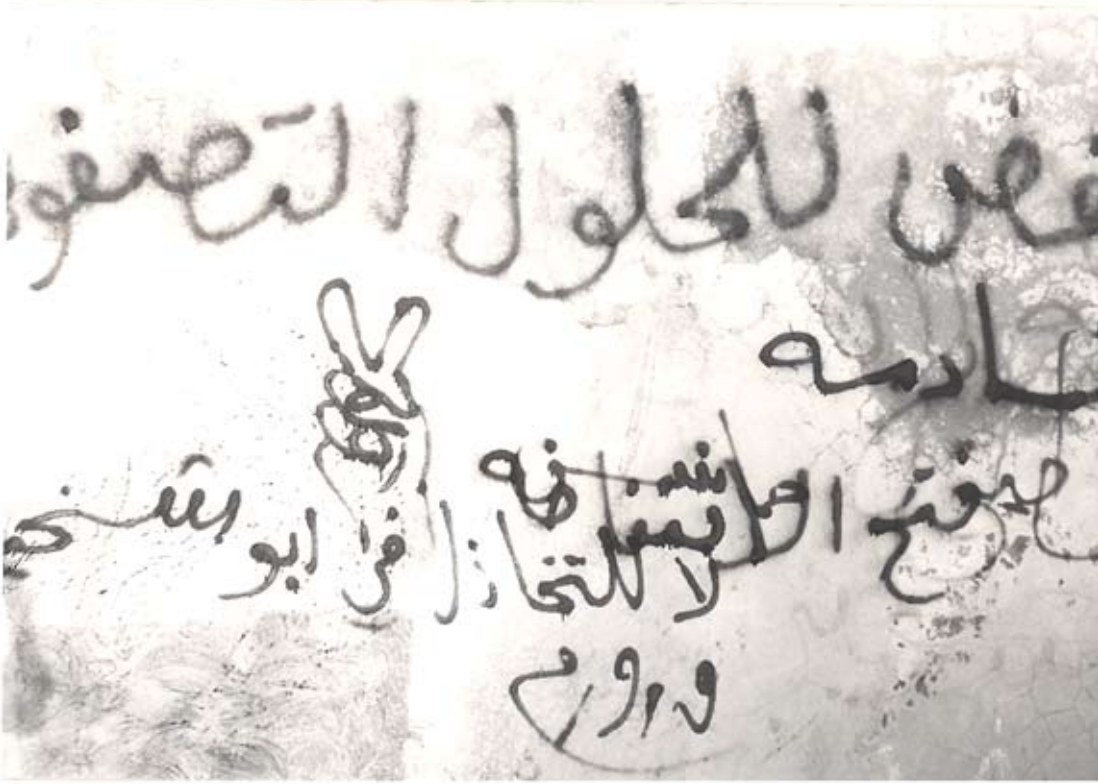

"No to weakness in Abu Shekhedam" (lā **lit-takhādul fī Abū ʃkheidīm**) is a message which urges the inhabitants of the village of Abu Shekhedam to remain steadfast. Also featured is a V-sign, one of the most ubiquitous symbols of defiance to the Israelis and a reminder to the Palestinians themselves that "victory" requires **al-iltizam** or "commitment." Bir Zeit University, The West Bank.

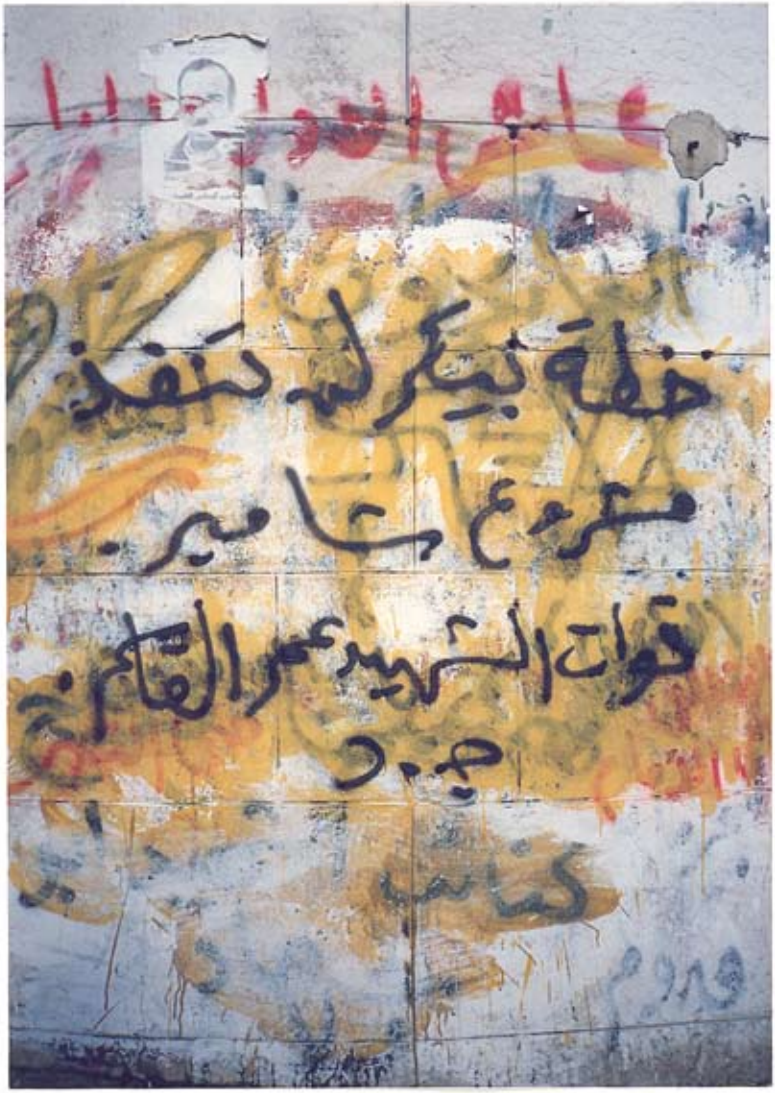

"The Baker plan will not save Shamir's project. The Force of the Martyr Omar al-Qassem, The Democratic Front " (khuṭṭa Baikar lan tunfiḍa maš̄rūʿ Šamīr quwāt aš-šahīd ʿOmar al-Qassem jīm dāl). Much of the graffiti of the Intifada serves a quite pragmatic purpose, something like a billboard of the uprising. Through the writing on the walls, strike-days are announced, key points from leaflets are posted, and various factions announce their position on issues of moment. Ramallah, The West Bank.

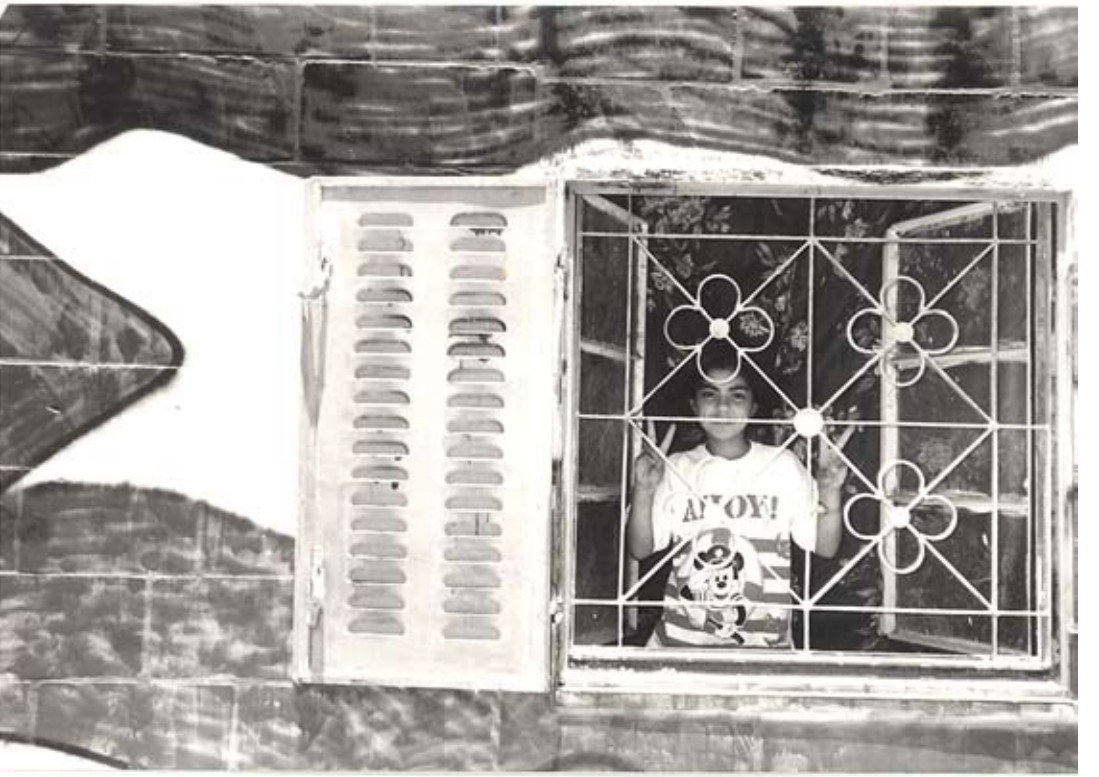

Almost all Palestinian groups, both secular and religious, use the flag or its colors frequently and prominently in their graffiti. Here, a Palestinian flag has been painted on the front of a house. Beit Hanina, East Jerusalem.

Yasser Arafat, leader of Fatah, chairman of the PLO and president of the yet-to-be-realized state of Palestine, has himself become a symbol and is conspicuous in the pantheon of Palestinian icons. His presence is everywhere, floating high above the street and out of the reach of soldiers. He is pictured caressing children, holding bouquets of roses, or locked in embrace with the martyr-saint Abu-Jihad. Ramallah, The West Bank.

The one-way sign is depicted on a fence. Hugging the knuckles and the raised finger is the inscription "Allah." The one-way sign with the index finger flung heavenwards is a symbol favored by Hamas and the Islamic Jihad. Gaza City, The Gaza Strip.

The acronym for **al-jabha aš-ša'bia li taḥrir al-filisṭīn**, the Popular Front for the Liberation of Palestine, is drawn on a storefront in the shape of a Kalashnikov rifle (top figure), which is pointed at a map of All Palestine and is shown as coming from the left through Jordan--both to emphasize the PFLP's leftist orientation and their erstwhile motto that the liberation of Palestine will come only through the "liberation" of Jordan. The bottom figure is a stylized acronym--**lām mīm šīn** --for **al-lijān al-muqā)wama aš-ša'bia** , the Popular Resistance Leagues. The organization's symbol is a fist, as they consider themselves one of the strike forces of the Intifada. Khan az-Zeit, Old City, Jerusalem.

A typical variation on the gun motif is to write the name of a political faction, here Fatah, in the shape of a rifle. This practice, which has its roots in traditional Arabic calligraphy, creates an internal equation between the object and the word. In Arabic, *fatah* means "The Opening" and is a term with rich religious and historical associations for Muslims. Bir Zeit, The West Bank.

"Medinat Yehudah" or "The State of Judea" is a political movement founded in early 1989 by followers of Rabbi Meir Kahane, with the aim of occupying any land vacated by Israel in the West Bank and Gaza and establishing a militant Jewish state. **"Basad,"** an abbreviation of **"ba siata dashmaya,"** "With the Help of God," is written in Aramaic in the right-hand corner. Between Nablus and Ramallah, The West Bank.

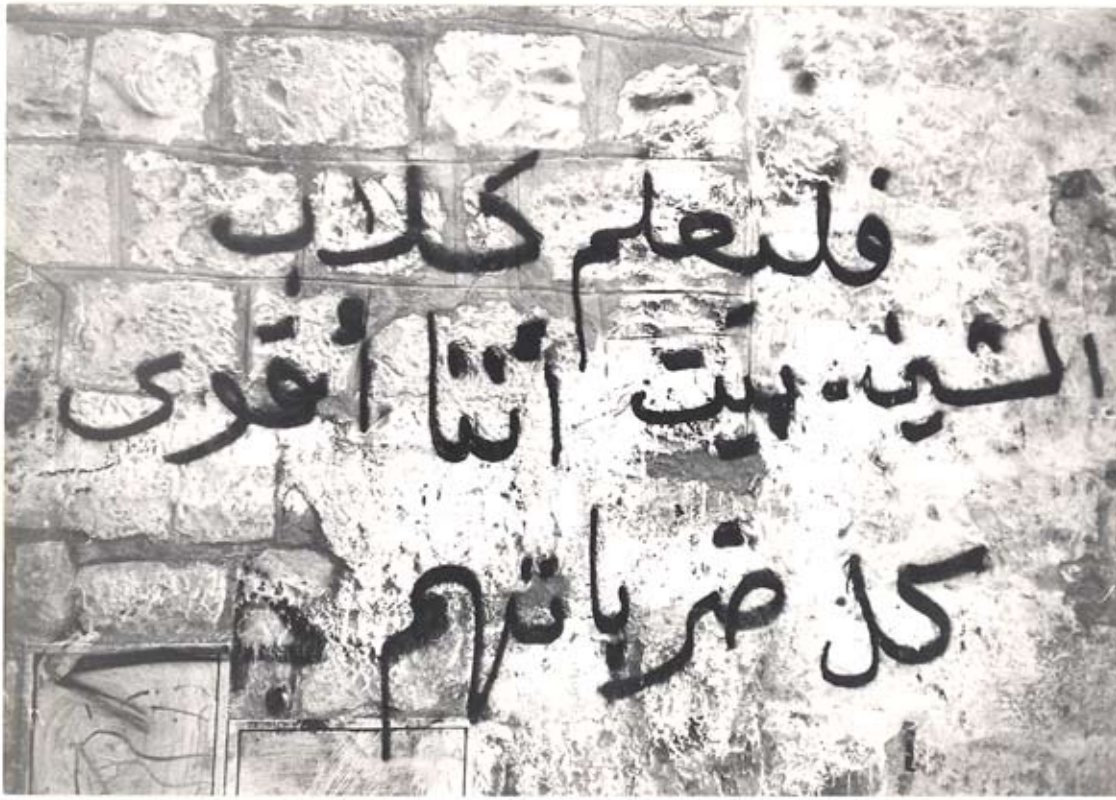

"The dogs of the Shin Bet [Israeli secret police] must know that we are stronger than all their beatings. J.Sh. [Popular Front (for the Liberation of Palestine)]" (felya'lam kilāb aš-šin-beit innanā aqwā [min] kull ḍarabātihim jim.šim). Old City, Jerusalem.

"Hamas. Our land is Islamic this is the essence" (hamās arḍanā islāmiya haḍa hiya al-huwiya). Hamas and other like-minded Islamic groups insist that the land of Palestine-Israel is al-arḍ al-muqaddas or Holy Land and, as such, may never be relinquished. Muslim Quarter, Old City, Jerusalem.

"Remember the glorious Day of the Land" (dikrā yom al-arḍ al-majīd). The Day of the Land is commemorated by Israeli-Arabs in memory of six people killed during protests against the confiscation of Arab land in the Galilee. It has become a rallying point for many Arab political groups in Israel, particularly the more radical movements such as the Sons of the Village. In recent years, the Day of the Land has been celebrated in the West Bank and Gaza as a symbol of solidarity between Palestinians inside and outside of the Green Line. Jiffna, The West Bank.

"Hamas. The revolution will not be stepped on" (ḥamās aṭ-ṭaura lan tudās). This graffito is notable for its use of the term "revolution," a word often eschewed by the Islamic groups such as Hamas as being in inception un-religious and even heretical. Muslim Quarter, Old City, Jerusalem.

On a gas pump in Ramallah, an announcement of the first anniversary of the martyrdom of Ahmad Kilani has been posted. The martyr or **shahid** holds a high place in Palestinian society as one who gives his life in the "Holy Struggle" "for the sake of Allah" and a "national homeland." Ramallah, The West Bank.

The Dome of the Rock and a one-way sign are painted over a map of Palestine. The Dome of the Rock and the one-way sign (to heaven) are used almost exclusively in the graffiti of the religious movements, particularly Hamas. In this graffito, one sees again the melding of the word and the object. The Dome of the Rock has been constructed from the (Arabic) letters of Hamas. The slogan to the left of the mosque reads, "junūd ḥamās lilaqṣā ḥarās," "The troops of Hamas are the guardians of al-Aqsa." ar-Ram, The West Bank.

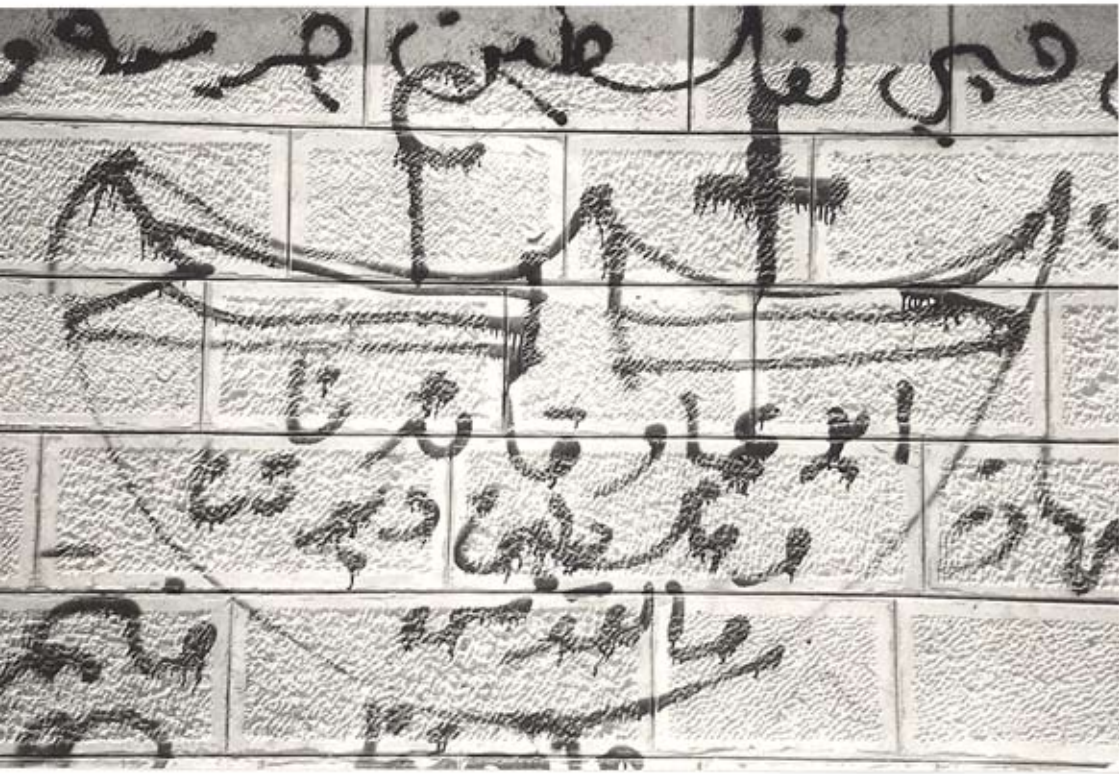

"Abu Amar is our leader and Palestine is our home and Jerusalem is our capital" (**Abū 'Amār qā'idnā wa filasṭīn diyaratnā wa al-quds 'āṣimatnā fataḥ**). The slogan has been drawn in the form of a ship bearing two masts, one in the shape of an Islamic crescent , the other, a Christian cross. Beit Hanina, East Jerusalem.